العوامل الجغرافية في عمران الشرق

صناعة الغرب وصناعة الشرق

٢

تستند نهضة اوروبة على وفرة منتجات الفحم الحجري في بلادها . فهو مذيب الحديد ، ومولد البخار الذي ينفخ روح الجدّ والحركة المطردة في صناعتها وتجارتها . رفع البخارُ بقوته هذه الصناعة عن ذراع الانسان واكثر بسرعة جرارته كمية المصنوعات فارخص ثمنها . وقضى كذلك على صناعة الشرق التي ما برحت تعتمد على ساعد الانسان الضعيف ، وتذعن لحكم البطء والأناة . وقد رفّق البخارُ صنائع الحديد العظيمة ، لبناء القطر والبواخر الجسيمة وسيّرها بسرعة الطير على ظهر الارض وفي جوفها ، وعلى وجه المياه وفي لجتها ، فقرّب اطراف البلاد النائية . واحدث انقلاباً جديداً في عالم التجارة لم يسبق لهُ مثيل في التاريخ . فقواعد الصناعة والتجارة الحديثتين ، ليست بالامر الذي يسهل فهمهُ على الشرقي المحتفظ بعادته . لاسيما وقد قطع منذ برهة طويلة كل علاقة لهُ باوروبة . ولم يتتبع اخبار تطورها ، ولم يطلع على الاسباب الاجتماعية التي طورتها هذا التطور . وهب ان الممالك المغولية ، وآخرها الحكومة العثمانية التي ترأست جسم الشرق الأشلّ منذ اربعة اعصر ، جددت افكاره ، وغيرت عقيدتهُ في اصول الصناعة والتجارة ، اتراها تجد من الفحم الحجري والحديد ما يجعل من الشرق بلاداً كانكلترا وبلجيكا والمانيا وفرنسا الشمالية . هنا نجد ايضاً كيف ان العوامل الطبيعية والجغرافية التي جعلت من الشرق بلاداً زراعية فقيرة بمناجمها ، تجعلهُ متأخراً في هذا المضمار . فمن الوهم بعد هذا ان نظن أن الترك كانوا سبب تأخرنا الوحيد . فهم كغيرهم من الامم الشرقية التي كثرت آثارهم المدنية في العصور الخالية قبل التاريخ وبعد التاريخ . فقد كان عهد السلاجقة في العراق وفارس والاناضول عهد امن ورخاء ازدهرت فيهِ الحضارة الشرقية خاصة في فارس والاناضول . ولم يقم قائم العمارة ، ولم تتقدم الصناعة والشعر والموسيقى في انحاء الهند ، ولم تستتبّ وحدتها الا في عهد المغول . وكذلك حدث عن آثارهم في الصين وانما اكبر ملامة نوجهها الى الترك هي ضنّهم بالحرية او بشيء من الاستقلال الاداري ، على البلاد التي كانت في

حوزتهم ، حين اصبحوا عاجزين عن تدبير شؤونها ، وسوقها برمتها نحو التجدد والفلاح

بلاد قامت حضارتها على اساس الزراعة، وقد انضب الفقر والجهل في نفوس اهليها معين التفكر والابتكار ، يتعللون بذكرى عصور زاهرة ، وسؤدد دعائمهُ الرمح والسيف، وتحمله القوافل البطيئة والمراكب الشراعية ، يستحيل عليها ان تنهض عبء عمار الى نهضة واحدة ، وتشتق اساليب الرقي الحديث ، وتفهم ما لقوة البخار والحديد والمال المتراكم في ايدي الشركات ، من الاثر في تطور الحياة

أتبه سلاطين بني عثمان سادة الشرق منذ اربعة عصور، الى رقي اوربة واحسوا بتفوقها عليهم في ساحات الوغى قبل كل شيء ، فقاموا يلتمسون التجدد من بعض وجوهه ساهين عن وجوهه الاخرى . لم يفكروا بتغيير اساليب الزراعة والصناعة ، وتمهيد الطرق ووصل اطراف البلاد بعضها ببعض ، واصلاح النظم الحكم والادارة البالية : ولكن حاولوا اصلاح جيشهم واسطولهم حرصاً منهم على حفظ ملكهم الواسع فلم يجدهم ذلك فتيلا. فان البلاد كانت سهلة ، وامتيازات اوربة التجارية والاقتصادية كانت تبتز البقية الباقية من ثروتها ، وتعمل على قتل الصناعة القديمة ، لتجد مخرجاً جديداً لصناعتها في اطراف هذا الملك الكبير

كانت تقضي الحكمة في مثل هذا الوقت العصيب ان تتنازل الدولة العثمانية لكل بلد من البلاد التابعة التي لا يتكلم سكانها التركية ، عن حق الادارة الداخلية ، في ظل سيادتها العسكرية والخارجية ، كي يلتفت كل بلد الى ادارة مصالحه وتدبير شؤونه . فيسن لنفسه سنة تلائم حاجاته واستعداد اهليه وتوصلهُ باقرب وقت الى مستوى البلاد الراقية . غير ان هذا التسامح الذي لا نجدهُ عند امة من الامم المتمسكة بتقاليدها كان يغرب ايضاً عن اذهان بني عثمان . مع اللامركزية جانباً فانهم ما زالوا يقتصون شبان هذه البلاد واياديها العاملة ، ليسوقوهم الى الموت في ميادين الحرب التي كان نصيبها الفشل متذعصرين. فحصول هذه البلاد على ما تطمح من الاستقلال الاداري ، كان يحتاج الى ثورة يقتع على الدولة العثمانية قعبها. فظهرت باوقات مختلفة ثورات ترمي الى هذا الغرض في الالبان ، وكردستان، واليمن ، والحجاز ، ولكنها باءت بفشل ، ولم تأت بفائدة من الفوائد الا ثورة مصر على يد محمد علي باشا الكبير

كان محمد علي باشا الكبير ، ينبوع العزم والذكاء الذي تحتاج اليه بلاد تسرب الى اعضائها الوهنُ ودنت من الهلاك . فقد ادرك بذكائه ودرايته ، كما ادرك قبلهُ باني الاسكندرية وبطليموس واحمدُ بن طولون والاخشيد والقاهر الفاطمي ما لمكانة مصر

الجغرافية من المقام الخطير . وتحقّق بعد ان درسها عن كثب ، انها من البلاد التي قضت الطبيعة عليها بان تكون مركزاً من مراكز الحركة الصناعية والعلمية والتجارية ، ورأساً مدبراً تنقاد لحكمه سائر البلاد المجاورة . فخطّ خطة حزم جليلة ترمي الى احياء مصر والشرق العربي معاً ، فتأهّب لتحقيقها بما أوتي من حنكة وسياسة ودهاء

وجد في مصر من الثروة ما يسهل تنميتها ، ومن الرجال ما يقوم بأود مشروعه العظيم . فمأ الجيوش المصرية على النمط الحديث ، وقوّى اسطولهُ دون ان يهمل الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم . فكان يرسل الى اوربة التلاميذ ويجلب منها الاساتذة للجامعات ، والاطباء للمستشفيات ، والمهندسين لبناء السدود ومصانع للمواد والادوات الحربية فخطت مصر في عهده خطوة كبيرة نحو التجدد . واماطت عن وجهها اللثام الذي حجب عن عينيها النور مدة طويلة من الزمان

نبّهت نهضة مصر نظر المستعمرين ، لاسيما الانكليز فلما رأوا انتصار محمد علي باشا على الحكومة العثمانية ، وتقدم جيوشه بقيادة ولده ابراهيم باشا في الشام والاناضول ، جزعوا وجاءوا الى الباب العالي يعدون لهُ يد المعونة ضد كبير مصر ، فحاربوهُ برّاً وبحراً واحرقوا اسطولهُ واجبروهُ على الرجوع الى مصر ، مكتفياً ببعض الامتيازات الادارية والسياسية

خشيت اوربة التي تنتظر ، بفارغ الصبر ، اليوم الذي تتفق فيه دولها على تقسيم السلطنة العثمانية ، تلك النقمة الماثلة ، أن تقوم للشرق قائمة على يد محمد علي باشا الكبير . لاسيما في امم البلاد التي يحرقون عليها اضراسهم طمعاً بقناها ، ونظراً الى وقوعها على الطريق المؤدية الى الهند واسواق الصين ، محشر الملايين من الباعة والمشترين

على انهم وان ردّوا محمداً عنهُا الى عرينه ، وضيقوا منطقة مساعيه لم يأمنوا ان تنهض مصر بسرعة توصلها الى درجة من القوة والمناعة ، تكونان عقبة كأداء في طريقهم الى آسية . فتداخلوا في شؤونها واتخذ الانكليز من فتح قناة السويس وسيلة تخولهم حق البقاء في اراضي النيل

حرّك طمع الانكليز واستئثارهم بموارد الثروة في العالم حسد الالمان . فاتجهوا هم ايضاً وجهة آسية ، وقاموا ينشدون اليها طريقاً جديدة ، يتصرفون بها تصرف الانكليز بقناة السويس . ففكروا بانشاء الخط الحديدي الذي يصل اوربة الوسطى ، عن طريق القسطنطينية ، بالبصرة وفرع يمتد منهُ الى اسكندرونة فيصل البحر المتوسط بالخليج

الفارسي . لم تكن غاية الالمان من انشاء هذا الخط موقوفة على مناوءة قناة السويس فحسب . ولكنهم رأوا في العراق بلاداً لا تقل ثروة عن مصر والهند ، اذا عمرت السدود الاشورية والكلدانية ، واصلحت الاقنية والخزانات . فهنا بلاد غنية على مقربة منهم بالنسبة الى انكلترة ، تكفي ما يحتاجون اليه من المواد الابتدائية الضرورية لصناعتهم لاسيما القطن والبترول والصوف إذا بذلت بعض الهمة لاصلاح قطعان بادية الشام والجزيرة وجبال كردستان . لم تخف نيات الالمان على جيرانهم الانكليز . فكانهم انتظروا فرصة الحرب العظمى ليتدرجوا الى احتلال سورية والعراق . فيدرأون بذلك خطر كل مراقبة تهدد قناة السويس ، ويضمون الى ممتلكاتهم قطراً جديداً من اغنى الاقطار . هذه كانت خطة الامم الشرقية الكبرى التي حكمت في هذه البلاد ايضاً . فقد كان لطريق البحر الاحمر شأن في التجارة القديمة لا يقل عنهُ شأن خليج البصرة ووادي الفرات ، ولا تسلم طريق من مراقبة الاخرى الاّ اذا كانت البلاد الثلاثة (مصر وسورية والعراق) في حوزة امة واحدة . ولذلك كانت مصلحة مصر تقضي ببسط نفوذها على سورية والعراق . وكانت مصلحة آشور وبابل حين تخلصا من حكم الفراعنة تقضي بنشر سيادتهما على سورية ومصر

جل ما يهمنا من هذا البحث ان العوامل الجغرافية التي كانت سبب تقدم الشرق وتأخره قديماً لا تزال عاملة الى يومنا هذا . فلو لم يستول الانكليز على العراق وجانب من الشام لكان هذان البلدان يشتان اليوم من جور الالمان . لان طرائق الاستثمار ، ووسائل الضغط والارهاق ، سواء لدى جميع هؤلاء الخلق . فأيّا كان منهم فهو اشدُّ وطأة علينا واعظمُ خطراً على مستقبلنا من شراذم البدو الذين يسوقهم الينا البؤس والمجاعة ، ويكتفون بالقليل القليل من السرقة والنهب ، في ايام الفوضى والضعف . واما هؤلاء ، فيجعلهم الجشع والحين على تجريدنا من كل سلاح مادي وادبي . يودون لو يجعلون منا بهائم تنقاد باشارتهم وترضى بما يرضونهُ لها من الجهل والمذلة والفقر . يكرمون الدهاء الخائن ، ويحاولون قتل مواهب النفس الشريفة ، ويخنقون كل صوت ينادي بالحق ، ويتهكمون بعاداتنا وتقاليدنا مهما كرمت ، طمساً لكل عصبة تستند اليها قواعد القومية والحرية والمروءة . هذه سيرتهم في جميع البلاد التي تعنو لحكمهم مع بعض التفاوت . لا تقطعُ انواعُ هذه الفجائع امل الشرقيين بالنجاة . فسينجو الشرقيون يوماً ولا بد من ذلك . وتكون نجاتهم معجزة لانهم يحاربون في دينهم وفي اخلاقهم

باريس نافذ غانم